المراثي

محمد جبر الحربي

(١)

للجبال أيائلُها والقرى

للثريّا عيونُ الثرى

للرماد انحناء المُكبّ على جمره

ولقلب المحبّ الصقيع.

قطيع من الفلوات الهموم يمرّ

وكم ذا يمرّ..

وكم ذا قطيعُ

وكم من جبال بمنتصف العمر

أشعلتُها بالقصائد.

ماذا أرى؟! ما يُرى؟!

ما الذي اشترى؟! ما اشتريتُ؟!

وماذا يُباع..

وماذا أبيع؟!

نعم إنها الحرب..

إني بذلت لها كل ما أستطيع

وإني لها الحربُ

أَزّ الرياحِ فرادى

وفزُّ الجهَات جميعُ

خطبت لها العاديات السرايا

وأسرجت روحي لها وعظيم النوايا

وسيجني حبّها: بحرها والبقيع.

نعم إنني الحرب

خالصةً للدماء

ومخلصة للسماء

إذا ما تسمَّتْ بأسمائها السبع

إن ظل طفلٌ على فطرة الأسوياء..

وضل القطيع

تمرّ به الريح حاملة ما تشاه من الجند

مُقلبةً ما بدا، أو تهيّأ لحافرها الصلدِ

ماذا الشتاء؟!

وماذا سيمنح أكمامَه في الربيع..

الربيعُ؟!

نعم إنه الحب

إني بذلت له ما يريد

فحاربتُ باسمك..

ثم قُتلتُ، وباسمك

لا تسأليني عن الذنب، مانحة الدرب

إن القتيل قتيل على الضفتين

وإن الشهيد شهيد..

وإن الشفاعة قائمة

وشفيع هواك... وقلبي

وللجرح في كل قلب شفيع..

(٢)

السموات دونك

فلتقطفي للسماء سماءً تظللني

ثم في بهجة الخطو

خطي امتداداً لعينيك غيماً جسوراً

لعيني

إن الغيوم التي تعرفين استقالت

وتلك التي تجهلين استمالت

سراباً فمالت

لكم ظلّ في الأرض ما يسند العود

كم أثخن الطفلَ طفل

يحاول أن يجمع الماء من بهجة النهر
مختطَفاً آثماً:
الجيوش معي
ثم إني لمنتصر.
غير أن القلاع تهاوت
ولم يبق غير الرمال البهيمه
خطف الفراشات
كفّ الموات عن الموت
كفان جاهزتان
ولا قطرة للغناء.
خليفة كل النساء
وهامة كل الرجال
السلالات دونك
ما يفعل المرء حين يشيخ وما زال
طفلا..
يحاول أن يجمع الماء من مهجة النهر
كفّان جاهدتان
ونبع من القلب حتى انحناء الهواء
إذا ما احتفى بالطوالع.
والباسقات
إذا ما تسلّل عبر الخلايا
وفجّر في هدأة المرء أوطانه
إذ يمرّ خفيفاً.. عنيفاً
وتُفتح كفان جاهدتان
ولا أثر للهواء!!

(٣)

مطر
تطاردني القصيدة استجيرُ بمعطف
الماضي
فأخرّب الأوقات
وأسرّب الأموات من فلواتهم
وأرتّب الجلساء للقاضي..
لا لم يجيئوا بعد
لكن المقابر في تلفّتها تضيء ملامح
الزوار
ما جاؤوا
ولكن البياض يُحلّ سرته
فتخضرّ الحمائم حاملات رزق عشاق
تناؤوا
لكأن في العينين ما يكفي عن الديباج
في الأغصان ما يغني عن الأطراف
في حجل الاحالة ما يحلّ القلب من
دمه
وما جاؤوا..
جلسوا على الأحجار ينتظرون
أن تصل القصيدة من سحاب الرمل
أن يصل المغني صوته بالرعد
أن تلد البروق لكي يرى الأعمى
مطر..
تطاردني العواصم لا أرى منها
سوى أشباحها
ونخيلها الذهبي منفيّاً على طرقاتها
العذراء
حيث الناس لا يمشون
وهم تراثها في دلّة البدوي
محموساً على الأوطان.
وأكاد ألمح وجهها في أعين الشعراء
مسحوبين من آذانهم
في أعين البسطاء يحضنها التراب
ولوعة الجداران.
مطر..
تطاردني الحمائم، والذئاب، وخسّة
الندماء
لا ليل تجلّى
لا نهار مهّد الطرقات
للموتى قصائدهم
وللأحياء فسحة أن يموتوا
أن يُطل نشيدهم عذباً جريحاً كاسراً
من جوع عين
من دم غضّ إلى نهل المسامع:
يا حمائم..
يا حمائم: أطلقي السجناء.